جامعة الأزهر - المنصورة
مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

(علمية - محكمة)

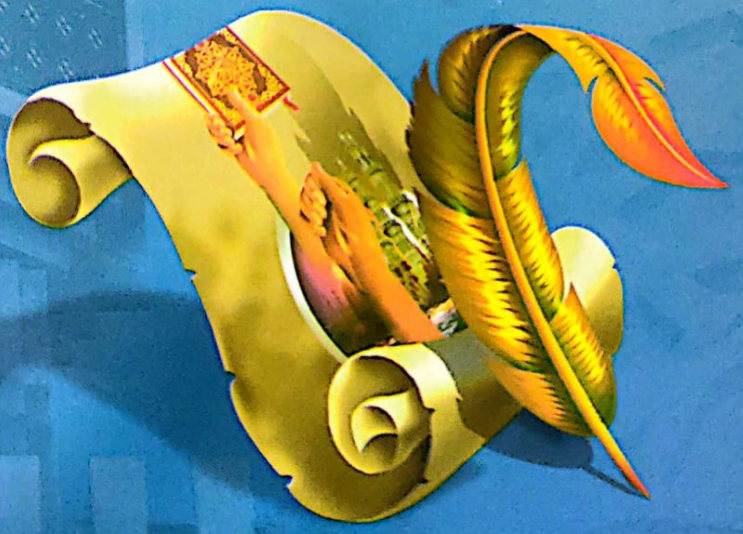

بشرف على تحريرها

الأستاذ الدكتور
جابر السيد مبارك
عميد الكلية

الأستاذ الدكتور
مصطفى مصطفى عطا
وكيل الكلية

العدد السابع عشر
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جامعة الأزهر
مكتبة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

يشرف على تحريرها

الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور
جابر السيد مبارك	مصطفى مصطفى عطا
عميد الكلية	وكيل الكلية

مجلة علمية محكمة

جامعة الأزهر
مكتبة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
الرقم الكلي :
الرقم العام : ٢/١٠١

العدد السابع عشر

الجـزء الثاني

١٤٢٩-٢٠٠٨م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلاغة الإقناع في آيات البعث والنشور

الدكتور

أحمد أحمد السيد شتيوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة فرع جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهم هيئ لهذه الأمة دعاة مخلصين ، يتخذون القرآن والسنة نبراساً يعلّمون به الناس ، ويسترشدون به في خطابهم ، ودعوتهم ، حتى تؤتي ثمارها المرجوة كل حين بإذن ربها.

أما بعد

فإن الله عز وجل قد ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله وتوحيده في كثير من الآيات القرآنية ، وجعل التصديق بالبعث والنشور من دلائل كمال الإيمان ، والسعي للعمل الصالح ، والزيادة منه ، والعمل لما هو أبقى والإقلاع عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

فالبعث بمثابة الرقيب الديني على أعمال المؤمنين في حلهم وترحالهم ، وسكونهم وحركاتهم ، فهو يجعل المؤمن يفكر فيما يعمله قبل الشروع فيه، ويسأل نفسه هل يقربه إلى الجنة أو إلى النار؟.

كما جادل الله العرب الذين أنكروا البعث ، وتشككوا في وقوعه ، فعدد من طرق الاستدلال علي وقوعه ، ونوع في عرض البراهين والحجج القائمة على الحوار ، والتصوير ، ورد شبه المنكرين ، بالأدلة العقلية والحسية التي تخاطب العقل والقلب معا. فعقدت العزم على البحث في هذا الموضوع تحت عنوان(بلاغة الإقناع في آيات البعث والنشور) لعدة أسباب منها:

أولا : عناية القرآن بالرد على المنكرين للبعث ، وإقناعهم بطرق مختلفة ، وأساليب متنوعة فقصدت الوقوف عليها ،وبيان بلاغتها ، ووجه الإعجاز فيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانيا: أن هذا الموضوع لم يتناوله أحد ـ فيما أعلم ـ من الناحية البلاغية ، فقصدت بيان سر تنوع الخطاب القرآني في آيات البعث والنشور، وتصريف القول فيها حتى يرد المنكرين إلى رشدهم، ويسلموا بقدرة الله البعث طواعية بعد إرخاء العنان لهم ، وسماع حججهم ، ثم إبطالها بالحجة والبرهان.

ثالثا: دعوة الدعاة والخطباء والوعاظ والمناظرين للاسترشاد بتنوع الخطاب القرآني في مواجهة المعاندين ، والمتكبرين ، والاستفادة من وسائل الإقناع والتأثير في خطابهم العصاة ، وحملهم على ما يراد منهم تجاه ربهم سبحانه.

وحتى لا يتسع الموضوع ؛ اقتصرت على تحليل بعض النماذج ، وما تركته يقاس عليها.

وكانت خطة البحث على النحو التالي : بدأت البحث بمقدمة عرضت فيها دوافع اختيار الموضوع ، وأعقبته بمدخل بينت فيه صلة الإقناع بالبلاغة ، ثم الوقوف على بعض طرق الإقناع ، وسر تنوعها في النظم القرآني ، ثم أتبعت كل ذلك بخاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم ثبت بالمصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات.

وحسبي أنني اجتهدت ، وأخلصت العمل ، فما كان من توفيق فمن الله، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان . اللهم اعصمنا من الزلل ، وجنبنا الخطل ، وتجاوز عن تقصيرنا .

هذا... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدخل

صلة البلاغة بالإقناع

تعد البلاغة أداة الإقناع ، والعامل الأكبر في تحول النفس من العناد إلى الانقياد ، والإقناع يعتمد على إبلاغ المعنى بالحجج الساطعة، والبراهين الناصعة، وإبطال كل شبهة، أو شك يدور بخلد المخاطب.

وطريقة الإقناع البلاغي هو الإفهام في لطف.

يقول أبو هلال: " واللطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب الناخرة، وتؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستعصية، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه، وتغلقه، وتستدعي غضبه وتستثير حفيظته [١].

وذكر ابن المعتز في فضل البيان أنه ترجمان القلوب، وصيقل العقول، ومجلي الشبهة، وموجب الحجة، والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرق بين الشك واليقين، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المصعب [٢]. واستقام الأحيد [٣]، وبهت الكافر، وسلم الممتنع حتى أشب الحق بأنصاره [٤]، وخلا ربع الباطل من عماره [٥].

ويهدف الإقناع البلاغي إلى تغيير النفوس، وهذا يستوجب تعامله مع

---

(١) الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرين صـ٥٧، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية

(٢) المصعب: الفحل الصعب القياد

(٣) الأحيد: المائل العنق كبرا

(٤) أشب: تجمع وقوى.

(٥) زهر الأدب وثمر الألباب للحصري، ضبطه د/ زكي مبارك ١/ ١٤٠، دار الجيل بيروت – لبنان، الطبعة الرّابعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميع ملكاتها، وجوانبها الفكرية والإرادية.

والبلاغة هي التي تؤهله للقيام بهذا الدور؛ لأن الكلام البليغ في جوهره هو الذي يبلغ المتكلم به ما يريد من نفس السامع بإصابته موقع الإقناع من الفعل والوجدان من النفس(١).

وحال المستخدم لأسلوب الإقناع البلاغي، كحال من يحتال لصيده حتى يوقعه في شراكه طواعية من غير قصر أو إرغام.

فالإقناع يعتمد على البلاغة إذ إن ضروب المعرفة تعتمد على العقل المجرد، وتثبت بالدليل القاطع، والإثبات وحده ليس معناه الإقناع، فإن الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس، والسيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة، والبلاغة تسيطر على الفكر والوجدان معا (٢).

وذكر الأستاذ / أحمد حسن الزيات أن الوظيفة الأولى للبلاغة هي الإقناع من طريق التأثير ، والإقناع من طريق التشويق ؛ ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النفس أكثر ، وعنايتها بتجويد الأسلوب أشد(٣).

فالتلازم بين العقل والعاطفة في خطاب النفس البشرية بقصد إقناعها بأمر ما ثابت. وهو ما صرح به د/ محمد عبد الله دراز بقوله:"أما ما يبدو فوق طاقة البشر حقا في الأسلوب القرآني، فهو أنه لا يخضع للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى الفعل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل، وبنسب عكسية بحيث يؤدي ظهور إحدى القوانين إلى اختفاء الأخرى، ففي القرآن

---

(١) ينظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د/ عبد الغني بركة صـ٣٧١، مكتبة وهبه ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . بتصرف.

(٢) ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب د/ أحمد بدوي صـ١٤ نقلا عن دفاع عن البلاغة للأستاذ/ أحمد حسن الزيات صـ٢٤

(٣) دفاع عن البلاغة صـ ٢٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا ترى إلا تعاونا دائما في جميع الموضوعات التي يتناولها بين هاتين المتنافرتين [١]

إن علاقة البلاغة بالإقناع هي علاقة الأداة الفاعلة المؤثرة بالدعوة النبيلة السامية، فما بلغه القرآن في دعوته من تقويم للمعتقدات، وترشيد للأخلاق، وبناء للمجتمعات هو نتيجة لما تميزت به وسائله الإقناعية والتربوية من كمال وانسجام، ودقة وشمول، فقد كانت هذه الوسائل تهدف إلى السيطرة على النفس، ولا يكون ذلك إلا بالبلاغة [٢].

والبيان القرآني في كثير من آياته يهدف إلى الإقناع القائم على الحجج المقنعة التي تثير العاطفة والفكر معا، بخلاف حجج أهل الكلام والمنطق التي يخاطب فيها العقل وحده [٣].

وإذا كانت البلاغة تقوم على عدة وسائل متبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع، وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسنات وإبانة وإظهار وإقناع فإنها تهدف إلى أمرين الوضوح والتأثير والإقناع [٤].

وبهذا بان لنا العلاقة الوطيدة بين الإقناع والبلاغة فكل منهما يعتمد على الآخر، ويتفاعل معه ؛ بهدف إيصال المعنى إلى قلب المخاطب في صورة حسنة ومقنعة، وكسب تأييده بقضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، وإقناعه عن طريق إشباع مشاعره وفكره معا [٥].

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم صـ١١٧.

(٢) أساليب الإقناع في القرآن الكريم د/ بن عيسى باطاهر صـ٤٤ دار الضياء للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م.

(٣) أسس النقد الأدبي صـ٦٦ بتصرف.

(٤) عالم الفكرم٣٠ ع١ يوليو سبتمبر.

(٥) المرجع السابق بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حوار بين منكري البعث والرسول ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

يرتكز الحوار في هذه الآيات على إثبات البعث والنشور، وفيه عرض لأقوال منكري البعث والرد عليها، كما اعتمد الحوار على القياس المنطقي، والمحاكمة العقلية، وعرض كل طرف أدلته وحججه لإقناع الآخر.

واستخدم أسلوب الاستفهام في أكثر من مرة متتالية لإعطاء المخاطبين فرصة التفكير، والإجابة على التساؤلات المطروحة، بهدف إقناعهم بالبعث.

بدأت الآيات بعرض شبهة المنكرين للبعث قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ إنهم يستبعدون وقوع المعاد، وإمكان الإعادة بعد تمزق الأجساد، وتفرقها. وفي هذا تشكيك في كمال علم الله المحيط بكل شيء، وكمال قدرته على كل شيء.

ويدل النسق القرآني قبل عرض الشبهة في قوله :﴿ وقالوا ﴾ علـــى

---

(١) سورة الإسراء من الآيات ٤٩ - ٥٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خروجهم على قوانين الفطرة لعدم خضوعهم للتفكير الصحيح ، كما يدل على السخرية والاستهزاء بهؤلاء المعاندين،وأن قولهم ينم عن ضلالهم.

وجاء البدأ بالعظام قبل الرفات ترقياً معهم في الإنكار، وتصاعداً معهم في الرد عليهم [١].

وإعادة الشبهة بنصها في آخر السورة ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [٢] ليس من التكرار كما يوهم، إذ الأولى من كلامهم في الدنيا حين جادلوا الرسول، وأنكروا البعث ، والثانية من كلام الله تعالى حين جازاهم على كفرهم، وقولهم ذلك وإنكارهم البعث [٣].

والاستفهام في ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا ﴾ إنكاري يفيد كمال الاستبعاد والاستنكار للبعث. فهم ينكرون البعث وإن بقي البدن على حاله، وليس صيرورته ترابا، أو عظاما، وقولهم: ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ لا يعني الإنكار مقيداً بوقت معين ؛ بل لتقوية الإنكار ، وهو ما دلت عليه اللام في قوله : ﴿ لمبعوثون ﴾ .

يقول الإمام أبو السعود : " وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية ؛ بالفعل في حال كونهم عظاما ورفاتا، كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك، واستعدادهم له. ومرجعه إلى إنكار

---

(١) انظر: الإعجاز في نسق القرآن دراسة للفصل والوصل بين المفردات د/ محمد الأمين الخضري صـ١٨١، مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة .

(٢) سورة الإسراء، آية: ٩٨.

(٣) انظر: البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة الكرماني ، قدم له أحمد عز الدين صـ٢٢٦ ، دار الوفاء بمصر ط٢ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البعث بعد تلك الحالة، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه [١].

وتقرير شبهة القوم تكمن في أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم [٢].

والجواب عنها : أن هذه الأشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته. أما إذا سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله تعالى، قادرا على كل الممكنات كان قادرا على إعادة التأليف والتركيب والحياة والفعل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فثبت أن متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية [٣].

ثم كان جواب النبي ﷺ بأمر من الله على الشبهة السابقة بقوله: " قل": أي يا محمد مجيبا هؤلاء المنكرين لقدرتنا على إعادة أجسامهم إلى حالتها الأولى التي خلقناها من قبل.

والأمر في قوله: ﴿ كونوا حجارة أو حديدا ﴾ لا يعني الأمر الحقيقي ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزكم الله تعالى عن الإعادة، وذلك كقول القائل للرجل: أتطمع مني وأنا فلان: فيقول: كن من شئت كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حقي [٤].

وذكر بعض العلماء أن الأمر هنا للاستهانة أو الإهانة ، وقال

---

(١) تفسير أبي السعود ١٧٧/٥

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٧٩، ١٨٠ ، فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٤٣، دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٧٩، ١٨٠ ، فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٤٣

(٤) مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطيبي: إنه أمر تسخير، واستبعد الشهاب الخفاجي معنى التسخير، وقال : فالصواب أنه للإهانة ، وهو ما قال به القزويني ، والعلوي [١].

وأضاف الطاهر بن عاشور وجهاً آخر: وهو أن الأمر هنا بمعنى التسوية على معنى إنكم مبعوثون سَواء كنتم عظاماً ورُفاتاً أو كنتم حجارة أو حديداً ، تنبيهاً على أن قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء [٢].

أو أن الأمر هنا للإفحام أو التهكم، ولا مانع من تلاقي أكثر من معنى في الصيغة الواحدة دون تعارض، أو مخالفة للسياق والمقام.

وقوله سبحانه :﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ تؤكد الآية قدرة الله ، وأنكم مهما تفرقتم وعلى أية حال كنتم فالله قادر على إعادتكم ولو كنتم حجارة أو حديدا ، فالله قادر على إعادة الحياة لكم.

فالمنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين المنافاة بين الحجرية والعظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءا من بدن الحي، أما الحجارة ، أو الحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة [٣].

بعد أن علق المنكرون استحالة الإعادة على صيرورتهم عظاما أو رفاتا، رد الله عليهم بأن الإعادة يسيرة على الله ولو كنتم حجارة أو حديدا، وفي الاحتجاج عليهم بالحجارة أو الحديد لبعدهما عن قبول الحياة من العظام والرفات، ولم يسبق لهما حياة ، وهذا أوغل في البعد عن الحياة لما بهما من جمود وتحجر.

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجي ٦/ ٦٦، الإيضاح ص ١٣٨، والطراز للعلوي ٣/ ٢٨٣

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ١٠٠

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٨٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد سيق عرض شبهتهم على سبيل التحدي تقريعا وتوبيخا لهم فهم لا يملكون أن يكونوا حجارة ، أو حديدا.

قال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون، وقال النحاس: هذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم، وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة ، أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة [١].

ويرى صاحب الكشاف أنهم لما قالوا: أئذا كنا عظاما ؟ قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدا، فرد بقوله: كونوا على قولهم " كنا " ، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديدا، ولا تكونوا عظاما فإنه يقدر على إحيائكم [٢].

فلا حجة لكم في استبعادكم البعث فلو كنتم أبعد شيء من الحياة، ورطوبة الحي، ومن جنس ما ركب منه البشر، وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدا مع أن طباعها الجسارة والصلابة لكان قادرا على أن يردكم إلى حال الحياة [٣].

وقد بني الرد على شبهة المنكرين على الترقي حيث بدأ بالأصلب، ثم الأصلب منه ، ثم الأصلب من الحديد ، أي افرضوا ذواتكم شيئا من هذه ، فإنه لابد لكم من البعث على أي حال كنتم [٤].

فالبرهان القرآني في هذه الآيات قائم من وجهين:

أولهما: أن سؤال الكفار" أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟" جوابه: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقا

---

(١) تفسير البحر المحيط ٦/ ٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٦٧١.

(٣) السابق ٢/ ٦٧١.

(٤) الكشاف ٦/ ٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديدا لا يفنيه الموت، كالحجارة أو الحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك. فلما تنافى وجودهم على هذه الصفة قامت الحجة عليهم.

ثانيهما : أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، لكان الله قادرا على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال.

ومن قدر على بعث الحياة في هذه الأجسام ، رغم شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فلا يعجزه عن التصرف فيما هو دونها [١].

وقد أبطل الله الشبهة بجملتها بالدليل العقلي البالغ، والبرهان الساطع الذي يستحيل رده، بقوله ردا على سؤالهم " من يعيدنا ؟ قل: الذي فطركم أول مرة "

هذا استدلال بالنشأة الأولى على الثانية، وفي تقييد الفعل بالظرف " أول مرة " فيه تذكير بما يجب أن يفعله هؤلاء المعاندون، وهو أن خلقهم على غير مثال سابق أصعب من إعادتهم مرة ثانية، وفي هذا ردع لكم، ودعوة إلى إيقاظ تفكيرهم، ومداركهم على الوجه الصحيح. ثم عدل النظم الكريم عن الجواب الذي يتطلبه السؤال تنبيها على أنه الأهم، وأن السؤال لم يأت على أصله الصحيح، وهو ما سماه البلاغيون بـ"الأسلوب الحكيم".

ولما كان قولهم هذا محقق الوقوع في المستقبل، أمر النبي بأن يجيبهم عندما يقولونه جواب تعيين من يعيدهم إبطالا للازم التهكم، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله: ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم؛ لأن ذلك أجدر ، وأقوى في المحاجة [٢].

ومع ذلك لم يعيروا للدليل السابق اهتماما فحركوا رؤوسهم استهزاء،

---

(١) ينظر: الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعاريبا، وسخرية وتعجبا قائلين استبعادا وقوع البعث: " متى هو ؟ " أجابهم الله سبحانه : " قل عسى أن يكون قريبا ". فهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم يقولون بالدليل العقلي إن البعث ممكن الوقوع، ويبطل كل حججهم، سألوا سؤالا فاسدا " متى هو " فهذا لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل يثبت بالدلائل السمعية [1]. ولم يخبر الله عن موعد قيام هذا اليوم، قال تعالى : ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ [2]، وقال سبحانه: ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ [3]، وفي إنكارهم الوقت، وعدم إتيانهم في كلامهم يفيد إنكارهم البعث بطريق آخر آكد، وأبلغ في الإنكار من الإنكار المباشر.

ثم يخبر الله عن حالتهم يوم القيامة في الاستجابة لأمر ربهم، ولم يعد لهم أمام هذا الأمر رد أو نكير أو استبعاد ، بل يأتون لله طائعين ، قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ .

ويدل القيد " بحمده " على الانقياد المطلق والتسليم الكامل المصحوب بشكر الله بعد قيامهم من موتهم .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٨١.

(٢) سورة الأعراف آية : ١٨٧.

(٣) سورة طه آية : ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطاب حجاجي

سجل القرآن الكريم شبهة منكري البعث الذين استبعدوا قدرة الله على إعادة الحياة بعد الممات؛إذا قاسوا قدرة الله على قدرة الخلق، وهذا أمر مستبعد، ولو نظروا نظرة تبصر واعتبار لكفاهم.

وبين الله هذه الحقيقة بما هو مشاهد لكل ذي عقل ، فقال سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

وجاءت الآيات تسلية للنبي ﷺ بعد إنكار الكفار للحشر، والبعث، وفيها تقبيح بليغ لإنكارهم حيث عجب منه، وجعله إفراطا في الخصومة بينا، ومنافاة لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفا مكرما، بالعقوق والتكذيب [2].

وقام الحوار على الدليل والبرهان حتى يكون الاقتناع عن برهان

---

(١) سورة يس الآيات ٧٧ - ٨٢

(٢) انظر: حاشية الشيخ زادّه على البيضاوي٤/٣١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحجة وفيه قياس للمبدأ على المعاد، فالذي خلق الإنسان من العدم قادر على بعثه مرة ثانية للجزاء والحساب.

ورد في سبب نزول الآية فيما رواه مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، وقتادة أن أبي بن خلف - لعنه الله - جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفته، ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أترعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال الرسول ﷺ نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار . وقيل الذي جاء هو العاص بن وائل [١].

وسواء أكانت الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، وهذا ما دلت عليه الألف واللام في لفظ " الإنسان " كما قال ابن كثير [٢].

وقد واجهت الآيات بواقع الإنسان ذاته، وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعا في حياته، ويشهده بعينه وحسه مكررا معادا، ثم لا ينتبه إلى دلالته، ولا يتخذ منه مصداقا لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره [٣].

واعتمدت الآيات على الحجج العقلية، والأدلة المحسوسة الدالة على قدرة الله على البعث، مخاطبة العقل والقلب معا، وتجعلها على يقين بأن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وعن أبلغية الحجج في هذا المقطع يقول ابن تيمية :" هذا قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها، وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله : ﴿ وضرب لنا ... وهي رميم ﴾ .

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨٨، وأسباب النزول للواحدي ٣٠٨ دار الحديث، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٤٣ ، مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٤٣ ، وروح المعاني ١٢/ ٥٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا الاستفهام متضمن للنفي، أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم، فإن كونها رميما يمنع عند (منكري البعث) إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة، ولتفرق أجزاءها واختلاطها بغيرها [١].

ولما بنى منكرو البعث الأمر الاستحالة كان الجواب أبعد مما يستفهمون عنه ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة ﴾ وهذا أدل على قدرته سبحانه.

وفي ذكر المسند في الجواب " يحييها"زيادة في التقرير والإيضاح، وفيه دلالة على غباوة السامع ، وضعف عقله .

وعن بلاغة الخطاب في هذه الآيات يقول شارح العقيدة الطحاوية : " لو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجج أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز، ووضوح الأدلة، وصحة البرهان لما قدر. فقد افتتح – سبحانه – هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جواباً فكان في قوله : " ونسي خلقه " وفي بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة.لولا ما أراد – سبحانه – من تأكيد الحجة، وزيادة تقريرها فقال: ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [٢]

وفي التعبير بالاسم الموصول وصلته" الذي أنشأها أول مرة" برهان قوي فمن قدر على إنشاء العظام أول مرة قادر على بعثه وإعادته مرة ثانية ، بل إن الإعادة أيسر.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٣٦، ت محمد رشاد سالم مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٤٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شبهات المنكرين وإبطالها

من المنكرين للبعث والحشر من لم يذكر دليلا ولا شبهة مكتفيا بالاستبعاد، وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ﴾ (١) ، وقوله عز وجل : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ﴾ (٢).

ومنهم من ذكر شبهة بقصد الاستبعاد أيضا - وذلك من وجهين:

أولهما: أنه بعد العدم لم يبق شيئا فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود، وأبطل الله هذه الشبهة بقوله: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ أي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، وهذا دليل على كمال القدرة الإلهية. قال تعالى: ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾(٣) .

وثانيهما: أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق الأرض ومغاربها وصار بعضه في أبدان السباع، وبعضه في حواصل الطيور، وبعضه في جدران المنازل كيف يجتمع ؟ ويعاد تشكيله جدلا من جديد. ثم كيف يعود إليه الروح ؟

فأجاب الله عز وجل بما يدل على كمال العلم والإحاطة بقوله :

﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ ثم أعقب ذلك بعرض الأدلة المحسوسة

---

(١) السجدة آية ١٠.

(٢) الصافات: ٥٣.

(٣) سورة القيامة ،آية ٤.

(٤) انظر: التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب ٢٦/ ٩٥، ٩٦، و حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ١/ ١٤٢، والتحرير والتنوير ٢٢/ ٢٨١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تؤكد قدرة الله على البعث بما هو مشاهد، مبينا لهم أنه لا وجه لهذا الاستبعاد، فالآيات الكونية التي بين أيديهم تدل على أن الخالق لا يعجزه شيء، وهي دعوة للتأمل والتفكر والنظر في المخلوقات حتى يسلم المعاند طواعية - ويقنع بقدرة الله على البعث - بلا تعنيف أو تجريح ، فإيجاده - سبحانه - الشيء من ضده، وهذا في الخلق أعجب، فهو وحده الذي يخرج النار من الشجر الأخضر الرطب ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون.

ووجه الشبه بين (الشجر الأخضر) و(أجساد الناس) :

" أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به، وحياة سارية فيه، وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فلا تستبعدوه، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب " (١).

فالشجر الأخضر يختزن الطاقة الشمسية وهو ريان بالماء، فإذا ما جفت الرطوبة منه، تولدت النار منه عند الاحتكاك، وهذا لا يقدر عليه إلا الله. فلماذا الإنكار إذن ؟

ثم عرض القرآن استدلال آخر يقرب إعادة الخلق إلى المنكرين، وهو أن من قدر على خلق الشيء العظيم يكون خلقه على ما هو دونه أعجب، وأدل على تمام القدرة، وجاء هذا الاستدلال على طريق التقرير لوضوحه ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وبعد : فالله هو المتصرف في كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا في السماء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ فهو المبدئ، وإليه المرجع .

وقد بنيت الآيات كما سبق على الخطاب الحجاجي القائم على إبطال حجة الخصم بعد ذكرها بحجج وبراهين واضحة مقنعة ؛ وذلك بقياس الغيب على المشاهد، وقياس ما بينه الله تعالى وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد، وفيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع، والقادر على ما لم يقع الآن ، ويقع مستقبلا كما وعد، والله لا يخلف الميعاد [١].

معاني الاستفهام

تتابع الاستفهام في الآيات السابقة ذات الوظائف المتنوعة كل بحسب سياقه ومقامه.

ففي قوله – سبحانه – : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ استفهام تقريري، أي إنا خلقناه من نطفة، والخطاب في الآية عام لكل المخاطبين بقصد تذكيرهم بأصل تكوينهم فقد خلقه الله من نطفة ثم سواه في أحسن صورة، ثم يخاصم ويجادل من أعطاه عقلا يفكر به، ثم يكفر بالله، وينكر قدرته على إحياء الموتى، وبعثه يوم القيامة للحساب.

وكيف يجهل قدرة الله ولم يعمل عقله في الاتجاه الصحيح، وكان الأولى به أن يوقن بأن من قدر على البدء فهو قادر عقلا على الإعادة مرة ثانية وهو أهون عليه؟. وقد أعقب انتظاره بالفاء وإذا الفجائية تقوية لتعجبه [٢] من أمر هذا الإنسان الذي شط عن الطريق، وخاصم في شؤون الألوهية وما كان

---

(١) انظر: مناهج الجدل في القرآن د/زاهر عواض الألمعي ص٧٩ ط٣ ،١٤٠٤هـ

(٢) حاشية الشهاب الخفاجيّ ٨/ ٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينبغي أن يحدث منه ذلك ويتجرأ على خالقه، فالإنسان ما جاء إلا ليعبد الله وحده لا أن يخاصم ويجادل فيما ليس له فيه شيء .

ومن بديع النظم القرآني أنه أتى بالجواب " ونسي خلقه " قبل السؤال " من يحيي العظام وهي رميم " والناظر في الجواب يراه منطقيا ومقنعا، فمن نظر في نفسه لم يسأل هذا السؤال .

وجاء التعبير فيه بالفعل الماضي " ونسي " للدلالة على أن النسيان من غرائز الإنسان، وطباعه التي لا يتخلى عنها.

والاستفهام الثاني في قوله تعالى : ﴿ من يحي العظام وهي رميم ﴾ غرضه الإنكار والاستبعاد، وقد بنى استبعاده على عقله القاصر، جاهلا في قياسه، فجاء الجواب مفحماً ومقنعاً في قوله سبحانه : ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي قل يا محمد تبليغا لهذا المعاند مذكرا إياه بالحقيقة الماثلة أمامه، وهو يتغاضى عنها.

وختم الجواب بقوله : ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ من بديع الاحتباك ، فالإحياء أولا دال على مثله ثانيا، والإنشاء ثانيا دال على مثله أولا " أول مرة " في الثاني دال على " ثاني مرة " في الأول فهو على كل شيء قدير. وهذا من أبلغية البيان حيث دل على البعث الجثماني والروحاني معا، كما قال الإمام البقاعي [1].

وقد أعيد الفعل " يحيي " الوارد في سؤال المعاند في جواب الله سبحانه " قل يحييها " لأنه نداء الاستبعاد والإنكار في سؤال السائل الذي قواه بوصفه العظام " وهي رميم " فجاء الجواب بحجج قاهرة، وبرهان جلي بما يراه كل ذي عينين، وهو الاحتجاج على المنشأة الثانية بالمنشأة الأولى، ثم الدلالة بالشيء الأعظم على الشيء الأيسر والأصغر.

---

(١) انظر: نظم الدرر ٦/ ٢٨٦، وملاك التأويل ٢/ ٩٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاستفهام الأخير في قوله سبحانه : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ إنكاري وفيه تقرير لما بعده، والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام، أي أليس الذي أنشأها أول مرة ،وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، وليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما [١].

ولما كان السؤال منحصرا في الإثبات والنفي فإن الجواب بـ(بلى) لنقض النفي المقرون بالاستفهام وإبطاله فتعين الآخر [٢]، وكأنه لم يعد له جواب سواه، فمن قدر على خلق الشيء الكبير فهو قادر على خلق الأصغر بطريق اللزوم.

وبهذا تقررت عقيدة البعث والنشور بعد عرض الأدلة والبراهين القاطعة المأخوذة من المشاهد ، ولم يعد أمام المنكرين سوى الإيمان بقدرة الله على البعث ، ولا إنكار بعد ذلك إلا لمن فقد عقله ، وأوقفه عن التفكير فيما يحيط به.

وكان وضوح الأدلة وقرع الحجة، وإفحام الخصم بارزا ودالا على أن الله قادر على إعادة الخلق ، وأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء، ثم قال سبحانه : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ فزادها شرحا وقوة ؛لأن من يخرج النار من أجزاء الماء وهما ضدان ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه. ثم قال تعالى: ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ فقواها أيضا وزاد في شرحها وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد؛ لأن إعادة الخلق ليست

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٥٥.

(٢) حاشية الشهاب ٩/ ٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء [1].

وتنتهي الآيات ببيان حقيقة العلاقة بين الوجود وخالقه ، علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود ، والسيطرة القابضة على كل شيء ...

وإليه وحده المرجع والمصير ، وهو ما دل عليه القصر في قولـــه : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ فجاء القصر في الجملة الاسمية للدلالة على عموم ملكه وثبوته واستمراره .

وفي الجملة الفعلية " وإليه ترجعون " للدلالة أن الرجوع فـــي الآخـــرة ،وليس في الدنيا .

---

(١) انظر: الصناعتين صـــ٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشاهد الكون تؤكد قدرة الله على البعث

تعد سورة (ق) من أكثر سور القرآن التي عالجت قدرة البعث ، وبطال دعوة المنكرين لها في كل عصر ومصر، وملفتة أنظارهم إلى دلائل القدرة الإلهية على البعث ، والسورة مكية تعالج أمر العقيدة والوحدانية ، والبعث والنشور والجزاء...الخ.

وسجل القرآن إنكارهم ، وعرض حججهم بقوله :

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ {٢} أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾(١)

جاء التعجب من الكفار بلفظه (بل عجبوا ــ عجيب) وبمعناه (أَئِذَا مِتْنَا)، وهذا استفهام تعجبي إنكاري ، وفيه دلالة على شدة استبعادهم لأمر البعث ، ودهشتهم لخبر وقوعه ، وشدة عنادهم واستكبارهم.

ولما كان أمر البعث بعيد الحصول عقلا ؛ لأنه غير مشاهد في حياة الناس أشاروا إليه باسم الإشارة البعيد (ذلك).

وحجة استبعاد الكفار للبعث أنهم بعد موتهم ، واختلاط أجسادهم بالتراب وتحللها وتفرقها مطلقا سيعودون كما كانوا بأرواحهم، وأشكالهم مرة ثانية ، هذا بالنسبة لمقدورهم مستبعد.

وجاء الجواب من الله مفعما ، ومفحما (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ) افتتاح الجواب بـ (قد) اقتلاع لتعجبهم ، ودلالة على كمال القدرة ، وعظيم الإحاطة ، وتمام العلم.

ثم عبر الله عن تمام الحفظ بقوله : (وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) أي : لا

---

(١) سورة ق آية : ٢،٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يغب عنه شئ مطلقاً، مهما دق أو صغر " فكيف يستبعدون على عظمتنا أن لا نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض ، ولم يختلط في علمنا شئ من جزء منه بشئ من جزء آخر ، فضلا عن أن يختلط شي منه بشئ آخر من تراب الأرض ، أو غيرها " (١)

ولما كان عنادهم شديداً، وجحودهم قويا ، خاطبهم الله بالدليل العقلي الحاسم، ومستخدماً معهم أنجح وسائل الإقناع ، وأنجعها ، آخذا بأيديهم بما لا يستطيعون معه رداً ، أو إنكاراً ، فيسلموا طواعية ، ويعودوا إلى رشدهم.

فقد دعاهم الله للنظر ، والتفكر في العالم العلوي وبنائه بلا عمد ، وارتفاعه، واستوائه ، وحسن التئامه ، ثم النظر في العالم السفلي ، وهو الأرض ، وكيف بسطها ، وثبتها بالجبال الرواسي ، وأودع فيها المنافع ، وأحياها بالنبات ، بعد موتها(٢) فقال سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ {٦} وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {٧} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{٨} وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ {٩} وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ {١٠} رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٣).

المعنى: أنهم لو وقفوا ، وأمعنوا النظر بما أخبرهم به الله لأيقنوا أن الله قادر على بعثهم ، وحسابهم دون إفحام أو إلزام ، فليس عليهم سوى النظر إلى الحقائق ، وإدراك ما في الكون من دلائل القدرة .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٨/٤٠٤.

(٢) الضوء المنير على التفسير لابن القيم ٤/٤٤٠، بتصرف .

(٣) سورة ق آية : ٦ــ ١١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي دعوة الكفار إلى النظر والاعتبار ، وسوق الأدلة لإقناعهم ، واستدراجهم، وانقيادهم للتسليم بحدوث البعث هو المقصد المهم في الآيات ؛ واذا لم"يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلاً إلى الحق ، ويقوّم ما فيها من عوج؛ ويحاول قبل كل شيء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة في صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم في جدل ذهني لإثبات البعث . وإنما يحيي قلوبهم لتتفكر هي وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب" (١)

فهو يريد أن يقلع القناعة منهم ، بعدما قدم لهم الحقيقة التي لا تنكر، فقدمت الآيات الدليل العقلي المقنع البعيد عن الحجاج ، والجدل ، وبه يلجم المعارض ، والمعاند ؛ لأنه تمثيل بما يراه دائما في حياته ، وهو إنزال الماء من السماء إلى الأرض ، فتحيا به ، وتنبت فيها الجنات ، وحب الحصيد ، والنخل الباسقة ، ثم شبه الله البعث بتلك الدلائل الجليلة ، والآيات العظيمة ، والنعم الغامرة التي يشاهدها الناس جميعا.

والقياس السابق له نظائر في القرآن ، ومنه قوله تعالى:" وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"(٢)، وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً

---

(١) في ظلال القرآن : ٧ / ١١ .

(٢) سورة الأعراف آية: ٥٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {٥} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٦} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (١)

وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج " تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى إفهام الناس" (٢).

واعتمد التشبيه على الصلة الوثيقة بين بعث الحياة في الأرض الميتة ، وبعث الحياة في الموتى في توضيح الفكرة ، وجلائها في الأفهام والنفوس ، فالإنسان يرى الأرض الميتة لا أثر الحياة فيها ، فإذا نزل المطر ، اهتزت وربت ، ونبت فيها من كل زوج بهيج ، وهذا مما يبعث في النفس السوية الاطمئنان إلى فكرة البعث والإيمان بوقوعه فيعمل لما بعده .وتلك غاية من غايات حديث القرآن(٣)

ويلاحظ في النظم البديع أنه ذكر ثلاث آيات كونية تتعلق بالسماء وهي: البناء ، والتزيين ، ونفي الفروج ، وذكر مقابلها ، ثلاث آيات متعلقة بالأرض وهي: المد ، وإلقاء الرواسي ، والإنبات فقابل المد بالبناء ؛ لأن

---

(١) سورة الحج الآية : ٥-٧ .

(٢) تفسير الألوسي : ١٩ / ٣١٥، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٢٧ .

(٣) ينظر : مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم ، تفسير ودراسة ، د/ أحمد محمد الحنطور ١/ ٤٧٤، ٤٧٥ ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٩م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المد وضع والبناء رفع ، لإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب ، لارتكاز كل واحد منهما ، والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج [١]

وقدم سبحانه آية السماء على آية الأرض ؛ لأن السماء أدل على المجد الذي هذا سياقه فهي أعجب صنعة، وأعلى علوّاً ، وأجل مقداراً ، وأعظم أثراً ، وأن الأرض لكثرة الملابسة لها والاجتباء من ثمارها يغفل الإنسان عن دلالتها ، بما له في ذلك من الصنائع والمنافع . [٢]

وهذه الآيات تبصرة ابتداء ، وتذكرة على الدوام لمن يفكر ويتدبر.

واستنبط الإمام البقاعي فقه مقاصد الأدلة المسوقة فقال: " لما ذكر سبحانه بعض ما له في الماء من العظمة ، ذكر له علة هي غاية في المنة على الخلق فقال : { رزقاً للعباد } أي أنبتنا به ذلك لأجل أنه بعض ما جعلناه رزقهم .

وذكر سر مجئ الدليل الآخر أنه لما كان ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث ولجميع صفات الكمال ، أتبعه ما له من التذكير بالبعث بخصوصه فقال : { وأحيينا به } أي الماء بعظمتنا .... ولما كان هذا خاصة من أوضح أدلة البعث ، قال على سبيل النتيجة : { كذلك } أي مثل هذا الإخراج العظيم (الخروج) [٣] أي: البعث.

وكل الأدلة التي مرت ناطقة بقدرة الله على إحياء الموتى ، وبعثهم من قبورهم .

---

(١) البحر المحيط ج ٨ / ٢٣ .

(٢) ينظر: نظم الدرر : ٨ / ١٧٤.

(٣) المرجع السابق : ٨ / ١٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعبر القرآن بالأسلوب الحقيقي في جانب رزق العباد ومنفعتهم فقال: (فأنبتنا)،وبأسلوب المجاز في جانب الحقيقة التي تقررها الآيات،وهي البعث بقوله: (وأحيينا)،وفي اصطفاء للأساليب،وملاءمتها المعنى المقصود.

وفي التعبير باسم الإشارة البعيد (كذلك) للدلالة على بعد منزلتهـا ، أي مثل ذلك الإحياء حياتكم في بعثكم من قبوركم.

وبهذا خاطبت الآيات العقل والقلب معا ، وقدمت الأدلـة والبـراهين المعتمدة على الحس ، يكتنفها جمال الأسلوب ، ودقة الأداء ، بمـا يـدعو للتسليم والاستجابة للمقصود.

وكانت دعوة منكري البعث النظر في الكـون المنظـور ليوقنـوا أن عنادهم واستكبارهم مردود عليهم ، ولا مجال لمن لم يؤت حظا من الفكر ، وقدرا من العقل ؛ ولذا نعتهم القرآن بقوله : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُـلِّ عَبْـدٍ مُّنِيبٍ﴾ مادحا المؤمنين ؛ لأنهم يؤمنون ، ويسترشدون بعقـولهم المطالـب والمقاصد ، ولذا آمنوا بالبعث ، وعملوا لما بعده من جزاء وحساب .

*****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ردود القرآن على المرتابين في أمر البعث

تعددت ردود القرآن على منكري البعث ، وقد اعتمدت جميعها على الحجج والبراهين والاستدلالات المقنعة ، التي ترد كل ذي عقل إلى رشده ، فيؤمن بقدرة الله على البعث ، متراجعا عن غيه ، وظلمه لنفسه ،ومن هذه الردود ما جاء في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {٥} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٦} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[1]

جاءت الآيتان عقب الحديث عن الذين يجادلون في أمر البعث ، وينكرون قدرة الله على ذلك ، فأورد الله دليلين واضحين لإمكان وقوع البعث ، وتحققه عقلا وشرعا.

أولهما : ما ورد في الآية الأولى ، ووضحه ابن القيم بقوله : " يقول سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ) ، فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون ، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال حين الموت ، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى فهما نظيران في الإمكان والوقوع ، فإعادتكم بعد الموت خلقا جديدا كالنشأة الأولى التي لا

---

(١) سورة الحج آية : ٥-٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترتابون فيها ، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها"؟[١] .

وهذا أحد وسائل الإقناع التي تؤتي ثمارها ، حيث البدء بما يسلم بـه الطرف الآخر، والتدرج معه ، ثم دعوته لقياس ما ينكره على ما يسلم به ، فيكون أولى بالإقناع ، أسرع في الانقياد .

والقرآن يدعو منكري البعث إلى إعمال العقل ، والنظر في أنفسهم ، وإلى قصة وجودهم ، وأن الذي يملك ذلك كله هو الله وحده الذي له القدرة في خلقه ، وهو الغالب في ملكه .

ولخص الله ــ سبحانه ــ حقيقة البدء والإعادة في قوله : (كما بدأكم تعودون) .

ورتبت الآية الكريمة الحديث عن خلق الإنسان ابتداءً ، وتطوره في مراتب مختلفة بما ليس في آية أخرى ، فبدأت بالحديث عن خلقه من التراب، ثم النطفة ، فالعلقة ، فالمضغة ، ثم الإخراج طفلا ، وبلوغ القوة ، أو التوفي ، أو الرد إلى الهرم.

وحكمة ذلك ــ والله اعلم ــ أن تعريف الإنسان بحقيقته ، وأصل نشأته، هو السبيل التربوي الذي لا بديل عنه لإقناع عقله بالحقيقة التي ترتكز عليها نشأة هذا الوجود [٢]

ومن بديع النظم في الآية ،ودقة اختيار الألفاظ الدالة على المقصود فيها ، مجئ لفظ الريب مسبوقا بـــ(إن) دون (إذا) مع أنهم جازمون باستحالة البعث للدلالة على أن أقصى ما يصلون إليه هو الارتياب فقط ،

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٤٠ .

(٢) منهج تربوي فريد في القرآن د/ محمد سعيد البوطي صـ ٢٦، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو أن جزمهم بمنزلة الريب الضعيف ؛ وذلك لكمال دلائل الإعجاز ، ونهاية قوتها [١]

وفي اختلاف أطوار خلق الإنسان ، ووجود كل طور مما قبله مع انعدام الصلة بينهما ، خير دليل وأقواه على تمام قدرة الله أولا وآخراً ، وأن قدرته على البعث أهون وأيسر.

وفي الآية إشارة لطيفة أوما إليها صاحب الظلال خلاصتها أن الأطوار التي مر بها الجنين فيها دلالة مزدوجة على البعث ، فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة ، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة . . وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذي ليس في وجوده جدال[٢].

كما أشار إلى أن الخطاب في الآيتين خاص بمنكري البعث ، ولذا خاطبهم بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم، داعيا قلوبهم ، وأبصارهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، أما المؤمنون فليسوا في حاجة إلى سرد هذه الأدلة[٣].

وجاء حديث القرآن عن أطوار خلق الإنسان في آية غافر ، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلا أن الخطاب فيها جاء عقب الحديث عن توحيد الله سبحانه، وانفراده بالخلق والأمر ، وتنزيهه عن الشركاء ،

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ٦/ ٩٣، بتصرف .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن : ٥ / ١٨٤ بتصرف

(٣) المرجع السابق ٥ / ١٨٤ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأنداد ، ونفي ما عبد من دونه .

أما آية الحج فقد اختصت بإقامة البرهان على البعث ، وبسط الدلالات على كيفيته ، وإرغام منكريه[١].

ثانيهما: الاستدلال على البعث بالدليل الحسي وهو : إحياء الأرض بعد موتها، وهذا الدليل يكثر ضربه في القرآن ؛ لكونه أقرب إلى النفس، وأكثر إقناعا من غيره ، وأمكن في التسليم .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"[٢] ، وقال سبحانه : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [٣] ، وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٤] .

فدل سبحانه بهذه الآيات عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه ، وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه ، وجعل إحياء الأرض بالنبات بعد موتها نظير إحياء الأموات،وإخراج النبات إخراجهم من القبور ، ودل بالنظير على نظيره ، وفي هذا دليل على عموم قدرة الله، وكمال حكمته[٥]

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٨٥٦ ــ ٨٥٨ بتصرف واختصار.

(٢) سورة الأعراف ، آية: ٥٧

(٣) سورة الروم ، آية : ٥٠

(٤) سورة فصلت ، آية: ٣٩

(٥) ينظر : إعلام الموقعين ١٤٤-١٤٥ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي تمثيل المعنوي بالمحسوس البصري الذي يشاهده كل الناس فيه مزيد من الإقناع . روى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي ، قال : قلت : يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : أما مررت بوادي أهلك ممحلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت : نعم يا رسول . قال فكذلك يحيي الله الموتى، وتلك آية في خلقه" (١)

يقول الأستاذ سيد قطب:" والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين ، وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون(٢).

كما أن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة ، وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه (٣)

وقد عرضت الآية حالتين متقابلتين : أولهما : حالة الأرض وهي قاحلة خاوية وهي حالة تشبه حالة الميت.

وثانيهما: حالة بعث الحياة فيها بعد سقوط المطر ، وإنبات الزرع فيها، بحالة الإنسان الذي بعثه الله بعد موته ، ومثوله للعرض والحساب.

وفي وصف الأرض بالهمود والاهتزاز استعارة ، حيث شبهت بالحيوان الذي همد بعد حراكه ، وخشع بعد تطالّه وإشرافه ، لعلّة طرأت عليه ، فإذا هو كذلك، ثم أفاق من تلك الغمرة ، وصحا من تلك السكرة ، فتحرك بعد

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجة ، وانظر : تفسير ابن كثير ٢٣٠/١٠

(٢) في ظلال القرآن٥ /٢٩٢٩.

(٣) السابق ١١٨/٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

همود ، وأفاق بعد ركوده، كذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب ، وأهمدها المحل ، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله ، وبلُّها القطر ببلاله ، واهتزت بالنبات ناضرة ، ورطبت بعد الجفون متزيلة ، ذلك تقدير العزيز العليم[1]

وينبئ السياق عن سر اختلاف وصف الأرض بـ(الهمود) في آية الحج ، ووصفها بـ(الخشوع) في آية فصلت في قوله سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) .

فالجو العام في سورة الحج بعث، وإحياء ، وإخراج، وتقديم دليل مشاهد لقدرة الله على البعث ، وإيجاد المعدوم، أما سورة فصلت فيسود فيها جو التوحيد ، والخشوع ، والخنوع لرب العالمين ، فهي أقرب إلى حال العابد.

وهذا من وجوه إعجاز القرآن حيث تختار الألفاظ في المكان اللائق بها في دقة وإحكام .

وبعد أن قرر الله الدليلين السابقين رتب عليهما المطلوب والنتيجة ، فقال معللا " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ" أي: ما تقدم من إثبات حقيقة البعث، وإقامة البرهان عليه من عالم الإنسان ، وعالم النبات دليل على وحدانية الله ، وتمام قدرته في كل شئ ، وهنا يتبدد ظلام الإنكار ، وتنقشع غلالة الشك ، ويعمل كل إنسان لهذا اليوم الذي يقتص فيه للشاة الكلحاء من الشاة القرناء.

---

(١) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية صـ ٢٣٦-٢٣٧ بتصرف.

(٢) سورة فصلت آية : ٣٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستعانة بما أقره الخصم لإقناعه بما ينكره

كثيراً ما يعتمد القرآن في خطاب منكري البعث بما يسلمون به ، ويقرونه ليصل إلى إقناعهم بما ينكرونه طواعية دون إجبار، أو إكراه.

وهذا أسلوب ناجح ، حيث يصل إلى غرضه بطريق هادئ دون جدال أو حجاج ، وسيلته في ذلك تقديم البراهين الحسية المشاهدة ، بقصد تقريب المعنى الذي ينكره المعاند ، فتكون قناعته أشد ، واستمالته أكثر.

والذي يطلبه القرآن من المنكرين النظر فيما حولهم من مظاهر الكون ، وتكفيكم الفطرة المتأملة الصادقة ، ومن أمثلة ذلك ما ورد في سورة الواقعة قال تعالى:﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ {٥٧} أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ {٥٨} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ {٥٩} نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ {٦٠} عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٦١} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ {٦٢} أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ {٦٣} أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ {٦٤} لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ {٦٥} إِنَّا لَمُغْرَمُونَ {٦٦} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ {٦٧} أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ {٦٨} أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ {٦٩} لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ {٧٠} أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ {٧١} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ {٧٢} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ {٧٣} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (١).

هذه الآيات أحد أجوبة القرآن عن سؤال المنكرين ، في قوله تعالى:

---

(١) سورة الواقعة آية : ٥٧-٧٤

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١)

استفهام المنكرين غرضه الاستبعاد والاستنكار ، وورد مكررا للتأكيد، ولم يأت إنكارهم دفعة واحدة ، وإنما جاء على سبيل الترقي ، والتصعيد ، فهم ينتقلون من إنكار شديد إلى ما هو أشد منه ، فهم ينكرون قدرة الله، وتمام علمه بقولهم :" أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" ، وفي تأكيد هذه الجملة بـ (إن ، واللام ، واسمية الجملة) يدل على قوة إنكارهم، وثبوت يقينهم به .

وفي تقييدهم الوقتِ المذكورِ ليس لتخصيصِ إنكارِه له، فإنَّهم منكرون للإحياءِ بعد الموتِ، وإن كان البدنُ على حالِه بل لتقويةِ الإنكارِ للبعثِ بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له بالكليةِ ، وتكريرُ الهمزةِ لتأكيدِ النكيرِ وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه، وفي الاستدلال على نفيهم للبعث، قالوا :" أَوءابَاؤُنَا الأولون " لتأكيد النكيرِ وأنَّ بعثَ آبائهم الأولينَ أبعدُ من الوقوعِ(٢)، وهذا أقوى في الاستدلال، وأشد في الاستبعاد بالنسبة لهم .

وحجة المنكرين أنه إذا كان بعثهم في مقدور عقولهم مستبعداً فكيف ببعث آبائهم الذين سبقوهم إلى الموت ، وطال زمان فنائهم ، وامتد عمر مكثهم ؟ أرأيت كيف أعمل الكفار عقولهم في الجدال في الباطل.

الجواب الأول عن سؤال المنكرين

أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالرد عليهم بقوله سبحانه:{ قُلْ } رداً لإنكارِهم وتحقيقاً للحقِّ { إنَّ الأولين والآخرين } من الأممِ الذين منْ جُملتهم

---

(١) سورة الواقعة آية: ٤٧

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود - ٨ / ١٩٦ بتصرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنتُم وآباؤكم، وقدم الأولينَ مبالغةٌ في الردِّ حيث كان إنكارُهم لبعث آبائهم أشدَّ من إنكارِهم لبعثهم مع مراعاةِ الترتيبِ الوجوديِّ ،والخطابُ لمن ينكرون البعث من أهلِ مكةَ وأضرابهم [١].

الجواب الثاني

لما كان إنكار الكفار للبعث شديداً، تعددت الأجوبة للرد عليه ، ودحضه من أساسه ، فبدأ القرآن بما يقرون به ، وهو أن الله خالقهم ، وخالق كل شئ، تمهيدا لإقناعهم بما ينكرونه طواعية ، ويسلموا بقدرته على بعثهم، وبعث جميع الخلق.

فبدأ الجواب بخطاب الكفار بطريق الإلزام والتبكيت، وحضهم على أن يصدقوا بقدرة الله على البعث ، كما قدر على خلقهم أول مرة ، فقال سبحانه :" نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ" ، ودلت الفاء على معنى ترتيب التحضيض على ما قبلها [٢].

واتخذ القرآن بعد هذا الاستفهام وسيلة محاجة وإقناع، واعتمد في ذلك على الأدلة الحسية ؛ بقصد الدعوة إلى لفت الأنظار إلى الظواهر الكونية المحيطة بهم، لاستخراج العبرة منها ، والاستدلال بها على قدرة الله تعالى [٣]

فقال سبحانه:" أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ؟ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ؟ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ؟

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٨ / ١٩٦، والتفسير الكبير مجلد٥/ جـ٢٩/ص١٥٠، وروح المعاني جـ٢٧/ ص١٤٥.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ، ٨ / ١٩٦ بتصرف

(٣) البيان في روائع القرآن د/ تمام حسان ٢/ ٢١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ؟

الاستفهامات تتوالى في قوة واستعلاء ، وتتنوع في المعنى من الإقرار إلى التوبيخ، ثم الإقرار مرة ثانية ، وكلها تؤكد على أن الله وحده هو المتفرد في الكون بقوته ، وقدرته .

وظاهر الاستفهامات المتقابلة تعادل ما قبل (أم) لما بعدها ، وليس ذلك حقيقة ، فهي متقابلة بين الحق والباطل.

ولا يدل الاستفهام على الإنكار المجرد ، وإنما للتنبيه والاستدلال على الحق بالإشارة إلى البطلان الذي يكون في المقابل للحق ، فإذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه، فإذا كان التردد بين كونهم الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم بالخلق ، فقد ثبت صفة الخلق لله وحده[١]

"وهذا النوع من المخاطبة يثير إيقاعا يتلاءم ،ومغزاه ، ودرجة قوة محتوى الآية ، وتسوده روح من التحريك والإثارة ، مشوبة بالتوبيخ العنيف، والمباغتة ، ووضع النفس أمام حقيقتها لتدركها ، وتعمل بمقتضاها وهذه طريقة نفسية ، تجعل النفس مذبذبة ، حائرة ، تعرف في الأخير طريق الهداية من تلقاء نفسها" [٢]، وتعود مليئة بالحسرات والزفرات لعدم استجابتها من أول الأمر ، وهذا من أهم المقاصد ، والأغراض .

ويهدف أسلوب المقايسة في الآيات السابقة إلى إبكات المنكرين ، وخرس ألسنتهم ، وإلجامهم الحجة .

ويتنزل خطاب النفس في الآيات بقوله (أفرأيتم ، وأأنتم) وفق

---

(١) المعجزة الكبرى ، للشيخ محمد أبو زهرة ، ص١٦٧، والبحر المحيط ٢١١/١٠.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن ، د عمر السلامي ، صـ ٢٤٥، توزيع مؤسسة عبد الكريم ، تونس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقاصد والأغراض ، فالأولى تخص العين المبصرة في ميدان الحس، والثانية تمس كل نفس بعقلها ،وحواسها ، وعاطفتها ، ومخيلتها.

والاستفهامات الأربعة مبنية على الاحتباك ، والاقتصاد ، فقوله سبحانه: (أأنتم تخلقونه)أي: توجدون ما هو عليه من الاستواء بعد النطفة ، والعلقة ، والمضغة ، وكسوته بالعظام . ويدل السياق أن التقدير أو أنتم الخالقون له ؟ أم نحن؟ فقال: بل نحن الخالقون ، وذكر تخلقونه أولا دليل على حذف مثله له سبحانه ثانيا ، وذكر الاسم ثانيا دليل على حذف مثله أولا.

ويطلب القرآن من المنكرين تجديد الإقرار بقوله:(أفرأيتم) أي : أخبروني هل وجدتم بالبصرة ،أو البصيرة ما نبهناكم عليه ، مستدلا بالخبر المعلوم عندهم ، والموقنون به أن الله وحده هو خالقهم ، وخالق ما يقيمون به حياتهم من طعام وشراب ، وليس أمامهم سوى الإقرار بقدرته على البعث ، كما أقروا بقدرته على الخلق ، وفي تكرار قوله تعالى (أفرأيتم) تأكيد الإنكار عليهم ، وبيان عجزهم أمام الآيات الباهرة الدالة على تفرده بكل شئ ، وقدرته على كل شئ.

وجه إعجاز القرآن في ترتيب الأدلة

جاء ترتيب الأدلة ، وعرض الحجج على نظم بديع محكم حيث بدأ ـ سبحانه ـ بذكر الخلق وما فيه من دلائل الوحدانية ،ثم أتبعه بذكر الرزق ؛ لأن به بقاء الحياة ،وذكر أمورا ثلاث : المأكول والمشروب ، وما به إصلاحهما ، ورتبه ترتيبا حسنا ،فذكر المأكول أولاً ؛ لأنه هو الغذاء وأتبعه بالمشروب لأن به الاستمرار ،ثم أتبعه بذكر النار التي بها الإصلاح ، وذكر من أنواع المأكول الحب ؛ لأنه هو الأصل، ومن المشروب الماء ؛ لأنه هو ـ أيضا ـ الأصل ، وذكر النار من المصلحات للطعام ؛ لأن بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إصلاح أكثر الأغذية [١].

والآيات الأربع التي ذكرها الله ، وأوقفهم عليها من أعظم الدلائل على البعث ، فهي تدل على الانتقال من شئ إلى شئ ، وإحداث شئ من شئ.

وفي وصف نفسه ـ سبحانه ـ بالعظيم؛ لأن من صنع هذه العظائم ،ومن كانت هذه أفعاله ،فلا يوصف إلا كذلك ، وهذا دليل على كبريائه،وتفرده بالخلق والنشأة ، والفناء ، والبعث .

ويلاحظ في الآيات أن الله خاطب عقول الكفار، طالباً منهم التدبر ، والتفكر.

وجاء خطابه موجزاً ، ولكنه ينطوي على بيان جم ، ومعنى واسع ،منتقلا فيه من المحسوس في قوله : (أفرأيتم ما تمنون) إلى المعقول في قوله : (أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ، فهلا تراجع المتعنتون !!

وارتبطت الفاصلة في الآيات بالمقصد العام

فقد خص الله آية قياس النشأة الآخرة على الأولى بقوله (فلولا تذكرون)، وفي آية صلاحية الماء للشرب بقوله (فلولا تشكرون)

وجه المناسبة أن الآية الأولى لمن تدبرها تذكره بالعودة الأخروية ، ولذا أعقبها بالحض على التذكر بالبداءة على العودة .

وأما الآية الثانية فمستدعية الشكر على عذوبة الماء (ولو شاء لجعله أجاجا) فخلقه وجعله غذاء ، فوجب شكره تعالى على هذه النعمة [٢]

وبهذا قدمت الآيات الحجج والأدلة الناطقة بقدرة الله على البعث بأسلوب شائق ، ومقنع.

---

(١) ينظر: تفسير الخازن ٧/ ٢١٤-٢٢٣، والمحرر الوجيز لابن عطية ٦/ ٢٨٩

(٢) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ١٠٦٨ بتصرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمثيل واقعي لقدرة الله على البعث

من مناهج القرآن في استدلاله على البعث ، وتحقق وقوعه ، وإقناع المنكرين بتقديمه أمثلة وقعت عيانا بشاهد ونحس ويسلم بها أصحاب العقول السليمة ،ويدلل بها على صدق ما أخبر به الرسل من أمر البعث والمعاد وإبطال شك المنكرين في شأنه ، ومن ذلك ما ورد سورة البقرة في قوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

جاءت الآيتان في سياق الحديث عن توحيد الله بالخلق والإماتة والإحياء،وقص خبرهم على منكري البعث ، بقصد إقناعهم بأمر المعاد واستمالتهم إلى الإيمان به ، والتسليم بقدرته سبحانه على كل شئ، وجسدت قصة الحياة والموت في صورة مادية ، للاطمئنان القلبي، كما حدث للخليل إبراهيم عليه السلام .

واعتمدت الآية الأولى على " تقديم الحجج والشواهد المنطقية ، وتفنيد الآراء المضادة بعد مناقشتها ، وإظهار جوانبها المختلفة ،وبناء

---

(١) سورة البقرة آية :٢٥٩- ٢٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النتائج على المقدمات" (١)

وفي الآية تمثيل حال المشركين في مجادلتهم النبيﷺ في البعث بحال الذي استبعد قدرة الله على الإحياء بعد الموت . قال صاحب الكشاف :" ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ كأنه قيل : أرأيت كالذي حاج ، أو كالذي مر" (٢).

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ، مذكراً إياه بأن جدال المشركين والكفار في أمر المعاد ، حدث في الأمم السابقة ،وليس عليك سوى القص عليهم ما حدث من قبل.

وورد في اسم المار ، والقرية أقوال كثيرة ، فقيل: بختنصر، وقيل : عزير، وأرمياء، وقيل أحد الصالحين من بني إسرائيل ، والقرية : هي بيت المقدس ، وقيل خلاف ذلك . (٣)

والذي نميل إليه هو ما ذكره الشيخ محمد عبده في تفسيره من أن الله أبهم اسم المار والقرية ،فلم يذكر مكانها ،وأصحابها ،وإنما اقتصر على الوصف الذي به تقرر الحجة حتى لا يشغل القارئ أو السامع عنها شاغل،وهذا من الاختصار البليغ (٤)

---

(١) من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ،د/معتصم بابكر مصطفى ، سلسلة كتاب الأمة ص ٥٩، العدد ٩٥ ،السنة الثالثة والعشرون ،جمادى الأولى ١٤٢٤هـ

(٢) الكشاف ٤٨٩/١

(٣) ينظر :تفسير الطبري٢٩٩/٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٤٧، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٥٥، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥٢.

(٤) ينظر: تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار للشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد رشيد رضا ٣/ ٤٩ ، دار المنار بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٦هـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالمقصود تعريف المنكرين قدرة الله على إحياء خلقه بعد موتهم ،ونشرهم بعد فنائهم.

والآية تعبر عن تغير الحال الذي لاحظه المار في القرية ، فها هي قد خربت بعد إعمار ، وانتهت كل آثار الحياة فيها ،فقال المار مستبعدا عمارتها بالبناء ، والسكان ،وعودة أهلها فيها مرة ثانية (قال : أني يحيي هذه الله بعد موتها).

ويدل السياق أن المار كان منكراً البعث ، فأراه الله ما يزيل هذا الإنكار، وأن يجعله آية ، ودليلا للناس ، وذلك من ثلاثة أوجه :

الأول: قوله: أني يحيي هذه الله بعد موتها .

والثاني:أن الله أراه آية في طعامه ، وشرابه ،وحماره ، ونفسه ليراه بعينه ، فيقر بما أنكره.

والثالث: في قوله سبحانه: (فلما تبين له) أي أمراً كان يجهله ،ويخفى عليه[1]

ولفظنا:(الإحياء ، والإماتة) في قوله سبحانه:" قال : أني يحيي هذه الله بعد موتها"، إما أن يكون حقيقة،أو مجازا،فعلى الأول يكون على حذف مضاف ،أي أصحاب هذه القرية، وعلى الثاني يكون مجازا عن العمارة والخراب ، ويكون قوله هذا بقصد التلهف ،والتشوق إلى عمارة القرية ،كما نص عليه الألوسي في تفسير، واختاره أبو السعود[2]

وعبر عن العمارة بالإحياء تهويلا للخطاب ، وتأكيدا للاستبعاد ، كما

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٦٢٠، والكشاف ١/ ، وابن كثير ٣/ ٤٥٣،وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥٣.

(٢) روح المعاني ٣/ ٢١، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت ، حيث قال (بعد موتها)

وفي اصطفاء التعبير بالبعث دون الإحياء ، في قوله (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) دلالة على سرعته، وسهولة تأديته على الباري سبحانه وتعالى كأنما بعثه من اليوم ، وللإيذان بأنه رجع عادة كهيئته يوم موته عاقلا ، فاهما ،مستعدا للنظر والاستدلال[1] ؛ ولذا قال سبحانه (فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) ، وهذا دليل لا يمكن إنكاره ؛ لأنه لم يخبر به ، وإنما عاينه بنفسه ، وعايشه ؛ وليكن دليلا واقعيا لكل من ينكر البعث.

وساق الله للرجل حجة عامة بقوله:(وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ)،بعد أن أراه الحجة الخاصة في نفسه ،لتغافل الناس عنها ؛ولهذا سلم الرجل بعدها ،وآمن بقدرة الله على البعث، وزال كل استبعاد ، أو تعجب ، وأقر بذلك بقوله :

(قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [2]

ولما هيئت النفوس لسماع الدليل الوارد في الآية السابقة، أتبعها القرآن بدليل آخر ، وهو أمر خليل الله إبراهيم عليه السلام مع ربه حينما سأله أن يريه كيف يحي الموتى؟

فكأنه قيل :يا منكري البعث ، ومظهري العجب منه، ومقلدي الآباء في أمره : اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم ؛ ولهذا عطف الآية على ما قبلها (وإذ) فالهدف في الآتيين واحد ، وإن اختلفت المناهج، وتنوعت طرق الخطاب.

وسؤال إبراهيم ــ عليه السلام ــ جاء بعد إيمان بقدرة الله على البعث وإنما قصد المشاهدة عيانا ؛ليصل من مرتبة اليقين إلى مرتبة عين اليقين

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٥٣.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٤/ ٦٢٠، والقرطبي٤/ ٣٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال القرطبي ــ رحمه الله ــ" اختلف الناس في هذا السؤال،هل صدر من إبراهيم عليه السلام عن شك أم لا ؟ فقال الجمهور :لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الموتى قط ،وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى ما أخبرت به ، ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام :ليس الخبر كالمعاينة ...وقال الأخفش :لم يرد رؤية القلب ، وإنما أراد رؤية العين"[١]

وفسر ابن عطية قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح " نحن أحق بالشك من إبراهيم ، وفي رواية نحن أولى بالشك لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ،فإبراهيم عليه السلام أولى بألا يشك ،فالحديث يفيد نفي الشك عن إبراهيم قطعا " [٢]

ولهذا علل إبراهيم عليه السلام طلبه بقوله : (وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) ،وفي هذا توضيح أمر المعاد لمن برتاب فيه أو ينكره ،سواء أكان من قوم إبراهيم عليه السلام ، أم من أقوام الأنبياء بعده.

لقد سأل إبراهيم ربه ليتأيد إيقانه بالعيان ، ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان[٣]

وأوضح الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ أن الذي دفع إبراهيم عليه السلام إلى طلبه هو التشوف إلى ملامسة سر الصنعة الإلهية ، والتشوف الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوع العمل ، وليس هذا مرتبط

---

(١) الحديث في صحيح البخاري، رقم ٣٣٧٢،وصحيح مسلم ،رقم ١٥١ ، ومسند أحمد، رقم ٨٣٢٨.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي٤/ ٣٠٩،والمحرر الوجيز ١/ ٣٥٢ ، ومعاني القرآن ١/ ٣٨٣.

(٣) ينظر:تفسير القرطبي ٤/٣١٥ ، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوجود الإيمان وثباته ، وكماله واستقراره .وليس هذا طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان ، وإنما هو سؤال الكشف ،والبيان ، والشوق إلى يد القدرة وهي تعمل؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها . . وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان ؛ وليقف على الفرق بين المعلوم برهانا ، والمعلوم عيانا ، والوقوف على حقائق الأشياء ، ومعرفة أسرارها[1]

وهذا كلام نفيس يدل على استشفاف للدوافع ، والمقاصد.

وقد استجاب الله لطلب إبراهيم عليه السلام ،وأمره أن يأخذ أربعة من الطير المختلفة الأجناس ، فيقربهن منه، ويميلهن إليه ، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن، وخصائصهن، حتى لا يخطىء معها معرفتهن ، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة . ثم يدعوهن . فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى ، وترتد إليهن الحياة ، ويعدن إليه ساعيات . هنا بلغ يقين إبراهيم منتهاه ، واطمأن قلبه بعد مشاهدة كيفية الإحياء الحقيقي ،وتقديم نموذج عملي محسوس.

وفي هذا رد على ما استشكله الكفار،ويستبعدوه من أمر البعث ، مؤكداً الله عز وجل بما أخبر به قرآنه ، أن البعث نافذ لا محالة مهما ارتاب المرتابون ،وأنكر المنكرون.

والمثال الوارد في الآية في اتحاد في الجنس ، واختلاف في النوع ؛ ليطابق حال الناس وإن تفرقت أجزاؤهم ،وتحللت عناصر أجسادهم ، فالله قادر على بعثها مرة ثانية.

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ١ / ٢٨١ ، ٢٨٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحادثة التي فصلتها الآية من ذبح الطير،وتفريق أجزائها على أماكن مختلفة ،واقعية ، وحقيقية بإجماع أهل التفسير،إلا أني وجدت من يذكر هذه الواقعة،كأبي مسلم ، وتبعه صاحب تفسير المنار.

فذكر أبو مسلم أنه ليس في الكلام ما يدل على أن إبراهيم عليه السلام فعل ذلك ، وما كل أمر يقصد به الامتثال ، وأن لفظ (فصرهن) ليس معناه التقطيع وأن القصد منه هو التأنيث ،كأن إبراهيم عليه السلام أمر الطير بالمكوث بجانبه [١].

وعلق صاحب تفسير المنار بعد أن نقل القول السابق " وجملة القول أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم ، وهو الذي يجلي الحقيقة في المسألة... ولله در أبي مسلم !! ما أدق فهمه ، وأشد استقلاله فيه [٢].

والحق أن قول أبي مسلم ومن وافقه مخالف لما عليه العلماء ، فضلا عن المقاصد ، والمعنى العام.

فالغرض من الآية كما قال الرازي هو ذكر محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة "[٣]، وأن لفظ (فصرهن) في الآية معناه : قطعهن، قاله : ابن عباس ، وأبو عبيدة ، وابن الأنباري ، وأبو إسحاق في السيرة ، وغيرهم [٤] ، ثم كيف يطلب الله من إبراهيم عليه السلام بقوله : (ثم ادعهن يأتينك سعيا) ، وهم ماكثون بجانبه ؟

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٤٤، وتفسير المنار٢/ ٥٥

(٢) تفسير المنار٢/ ٥٧-٥٨

(٣) التفسير الكبير للرازي ٧/٤٤

(٤) ينظر: تفسير القرطبي ٤/٣١٥ - ٣١٦، وأبي السعود ١/٢٥٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآية مبنية على الإيجاز فقد اقتصر الله عز وجل على حكاية أوامره من غير تعرضٍ لامتثاله عليه السلام، ولا لما ترتب عليه من عجائب آثارِ قدرتِه تعالى، كما روي أنه عليه السلام نادى فقال : « تعالَيْنَ بإذن الله » فجعل كلُ جزءٍ منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثاً ثم أقبلْن إلى رؤوسهن فانضمتْ كلُ جثةٍ إلى رأسها فعادت كلُ واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة؛ للإيذان بأن ترتب تلك الأمورِ على الأوامر الجليلةِ واستحالةَ تخلّفها عنها من الجلاء والظهورِ بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً (١).

وبهذا قدمت الآيتان الدليل البرهاني ، والتمثيل العملي ، والصورة المشاهدة الدالة على أن الله قادر على البعث بعد الموت ، واعتمد الخطاب القرآني فيهما على الحوار، وترك مساحة للفكر، حتى يكون الاقتناع بالمقصود كاملا.

******

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ١/٢٥٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

بعد معايشتي لطرق الإقناع في آيات البعث والنشور أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها:

- كثرة خطاب القرآن منكرين البعث في السور المكية ؛ وذلك لاعتراضات الكفار ، واستفهاماتهم، وشدة إنكارهم ، وساق القرآن أدلتهم ، ورد عليها ، وأقام الحجة عليهم ، وأفحمهم بالبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة ، وأخذ بأيدي المنكرين إلى الاعتراف بقدرة الله على البعث بعد الموت، وذكر كل الأدلة التي تشهد بذلك.
- حث المنكرين على النظر في الكون المشهود بعين العقل، وبيان أن ما يشاهدونه في الآفاق من مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية خير دليل على قدرة الله على البعث ،كما حثهم على النظر في مراحل خلقهم ، وأطوار نشأتهم، والدعوة إلى استخدام جميع قدرات الإدراك والتفكير، حتى يسلموا بأنفسهم على هيمنة الله على الكون ، وقدرته المطلقة في كل شئ.
- تضافر الأدلة في المقام الواحد وتنوعها ؛ بسبب قوة الإنكار ، حيث بدأ بالدليل العقلي ثم أعقبه بالدليل الحسي ، كما في سورة الحج.
- الترقي في عرض الأدلة حتى يقتلع الشكوك من جذورها، كما في سورة الإسراء.
- تنوع وسائل الإقناع وتوظيفها في مكانها اللائق بها، كالإجمال والتفصيل ،والاختصار، والأسلوب غير المباشر، والاستفهام الإنكاري ، والتقريري بقصد توبيخ المنكرين ، وبيان موقفهم المتناقض ،حتى يرتدعوا، وينتبهوا إلى خطئهم، وعرض السؤال والجواب، والتشبيه ، وضرب المثل؛ لتقريب المعنى، والحوار المبني على الجمال الفني ، فضلا عن التأثير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النفسي ، ومس شغاف قلبه.

• مخاطبة المنكرين بأقيستهم حتى يقيم عليهم الحجة ، ويبطل شكوكهم،وبيان أن من قدر على الخلق أول مرة، فالإعادة عليه أهون، وبيان أن من قدر على خلق الشي العظيم، كخلق السموات والأرض، وما فيها ، وإخراج النار من الشجر الأخضر قادر على إعادة الحياة للموتى مرة أخرى ، بل إن الإعادة عليه أيسر.

• التدرج في عرض الأدلة على البعث، ومراعاة درجات تفكير الناس، وتنوع نظرتهم إلى الكون المحيط بهم ، فقد حثهم على النظر في الأشياء المحيطة بهم ، وإدراك المقاصد الخفية، ثم الدعوة إلى النظر فيما هو أبعد من ذلك ، والنظر بعين البصيرة ، والاستنتاج المنطقي من الأشياء المحسوسة ، كما في سورتي (ق، ويس).

والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين.

د/ أحمد شتيوي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١ــ الإعجاز الفني في القرآن ، د/ عمر السلامي ، توزيع مؤسسة عبد الكريم ، تونس.

٢ــ الإعجاز في نسق القرآن دراسة للفصل والوصل بين المفردات، د/ محمد الأمين الخضري ، مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة .

٣ــ أسس النقد الأدبي عند العرب د/ أحمد بدوي،مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠م.

٤ــ أساليب الإقناع في القرآن الكريم د/ بن عيسى باطاهر ، دار الضياء للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م.

٥ــ أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د/ عبد الغني بركة صـ٣٧١، مكتبة وهبه ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٦ــ البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة الكرماني قدم له أحمد عز الدين - دار الوفاء بمصر ط٢ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٧ــ البيان في روائع القرآن د/ تمام حسان ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م

٨ــ تفسير أبي السعود ، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، د.ت.

٩ــ تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣.

١٠ــ تفسير التحرير والتنوير،للطاهر بن عاشور،الدار التونسية للنشر ، سنة ١٩٨٤م.

١١ــ تفسير الفخر الرازي ، المسمى بالتفسير الكبير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١.

١٢ــ تفسير القرآن الحكيم ، المشتهر باسم تفسير المنار ، للشيخ محمد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبده ، دار المنار، الطبعة الثانية ، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م

١٣ـ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير،مصطفى السيد محمد وآخرين ، مؤسسة قرطبة القاهرة.

١٤ـ تفسير القاضي البيضاوي ، وعليه حاشية زادة ، مكتبة الحقيقة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م

١٥ـ التفسير القيم لابن القيم ، جمعه/ محمد أديس الندوي ، حققه / محمد حامد الفقي ، دار االكتب العلمية ، بيروت لبنان ، د. ت.

١٦ـ تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق / الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود،والشيخ على معوض ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

١٧ـ تفسير المراغي ،لأحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر.

١٨ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية

١٩ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه / محمود محمد شاكر ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

٢٠ـ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

٢١ـ درء تعارض العقل والنقل ، ت/ محمد رشاد سالم ، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٢ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين محمد الألوسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٣ـ زهر الأدب وثمر الألباب للحصري، ضبطه د/ زكي مبارك ، دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الرابعة.

٢٤ـ الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرين ، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية..

٢٥ـ فتح القدير للشوكاني ، دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

في ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق ، مصر

٢٦ـ المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

٢٧ـ مجلة عالم الفكرع١ يوليو سبتمبر.

٢٨ـ مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم ، تفسير ودراسة ، د/ أحمد محمد الحنطور ١٤١١هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٩ـ من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ،د/معتصم بابكر مصطفى ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد ٩٥ ، السنة الثالثة والعشرون ،جمادى الأولى ١٤٢٤هـ

٣١ـ المعجزة الكبرى القرآن ، للشيخ محمد أبو زهرة ،دار الفكر العربي القاهرة،١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٢ـ ملاك التأويل ، للغرناطي ، دار الغرب الإسلامي

٣٣ـ مناهج الجدل في القرآن د/زاهر عواض الألمعي ط٣ ، ١٤٠٤هـ

٣٤ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner